مجلة جامعة دمشق للدراسات التاريخية المجلد 148
العدد2 (2024): 75-91

Damascus University Journal of Historical Studies. Vol. 148 No. 2 (2024):75 - 91

فلسفة التاريخ عند اليونان

أ. م. د. ميسون مدحت جاويد المرعشلي[1]

[1] ، قسم التاريخ، تاريخ قديم، تاريخ العصور الكلاسيكية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية الثانية.

الملخص:

يتناول البحث إشكالية مهمة مرتبطة بعلم التاريخ وتطوره عبر العصور وهي فكرة فلسفة التاريخ ومدى ارتباطها بعلم التاريخ من خلال دراسة علم التاريخ وفلسفته لدى أشهر الفلاسفة اليونان.

إن العلاقة بين التاريخ والفلسفة تتضمن أبعاد عدة هي: المنهج وهو المنهج الفلسفي والتاريخي، وهذ الاختلاف حول طبيعة المنهج من خلال مواقف المثاليين والوضعيين بِعَدّ التاريخ علم أم أدب. ثم الجوهر وهو الخلاف الآخر حول موضوع التاريخ وحول مهمة المؤرخ وطبيعة التاريخ، وأثار تساؤلات عدة لمن يكتب التاريخ؟ وعن من يكتب؟ هل عن شخصيات رئيسة أدت دوراً في الأحداث التاريخية أم عن حضارات ومجتمعات وجماهير الناس التي صنعت التاريخ. أي يكتب للفرد أم للجماعة. والمسألة الأخرى المؤرخ ودوره في الحكم على الأحداث التاريخية وهذا يرتبط بجملة من الأحكام والفلسفات التي عالجت هذه النقطة ولاسيما فلسفة الأخلاق والسياسة.

فالتاريخ البشري لا يتحرك فوضى وعلى غير هدف، وإنما تحكمه سنن ونواميس، كتلك التي تحكم الكون والعالم والحياة والأشياء سواء بسواء، وأن الوقائع التاريخية لا تخلق صدفة وإنما من خلال شروط خاصة تمنحها هذه الصفة أو تلك، أو توجهها صوب هذا المصير أو ذاك. فتفسير التاريخ إذاً يقصد به معرفة الروابط التي تربط الأحداث والوقائع المتفرقة، ودراستها لاستبيان دوافعها وارتباطها ونتائجها، واستخلاص السنن والنواميس الإلهية منها، والاعتبار بالدروس والعضات فيها، وهي مرحلة تأتي بعد الدراسة النقدية للأخبار، فالذي ثبت من الوقائع والأحداث هو الذي يفسر، وتدرس ارتباطاته، ويتعرف على دلالته وآثاره، وذلك بهدف تفسير القوانين وتحديد السنن التي تتشكل بموجبها معطيات التاريخ بوقائعه المزدحمة والمتشابكة، من أجل وضع اليد على مجموعات نمطية من المؤثرات التي تتحكم بالحركة التاريخية، فتسوقها في هذا الاتجاه أو ذاك، فيما يعرف بفلسفة التاريخ.

تاريخ الإيداع: 2023/9/13
تاريخ القبول: 2023/9/25

حقوق النشر: جامعة دمشق – سورية، يحتفظ المؤلفون بحقوق النشر بموجب الترخيص CC BY-NC-SA 04

ISSN: 2789-7478 (online)
http://journal.damascusuniversity.edu.sy/

إن فلسفة التاريخ تقوم على أساس وجود قوانين تتحكم في سير التاريخ، وهذه القوانين يجب اكتشافها والتعامل معها، ومن هذا المنظور يصبح التفسير التاريخي للحوادث اجتهاداً بشرياً يحتمل الخطأ والصواب، لأنه يدخل ضمن ميدان الدراسات النظرية.
ولعل أقدم المؤرخين اليونان الذين حفظوا لنا التاريخ هم: أرسطو في بحثه عن الجدل، وهيكاتايوس، وهيرودوت، وثيكوديدس، أما آخر كبار المؤرخين اليونانيين فقد كان بوليبيوس. وقد حاولنا من خلال البحث إلقاء الضوء على رؤية مؤرخي اليونان لعلم التاريخ ومدى ترابط هذا العلم مع فلسفة التاريخ وفكرة هذه الفلسفة عند هؤلاء المؤرخين مما أسهم بشكل واضح في تطور النظرة للتاريخ وتحوله إلى علم يوازي وأحياناً كثيرة يتفوق على غيره من العلوم العقلية والإنسانية.

الكلمات المفتاحية: الفلسفة، علم التاريخ، فلسفة التاريخ، اليونان، المنهج.

Greek philosophy of history

Prof . Maysoon Medhat Javed Al-Maraachli [1]
[1] Ancient History, History of classical times, Damascus University - Department of History.

Abstract:

The research deals with an important problem related to the science of history and its development through the ages, which is the idea of the philosophy of history and its connection to the science of history through the study of the science of history and its philosophy among the most famous Greek philosophers.

The relationship between history and philosophy includes several dimensions: the approach, which is the philosophical and historical approach, and this difference about the nature of the approach through the positions of idealists and positivists after history is science or literature. Then the essence, which is the other disagreement about the subject of history and about the task of the historian and the nature of history, and raised several questions about who writes history? And who is writing about? Is it about the main personalities who played a role in the historical events, or about the civilizations, societies and masses of people that made history? Which writes for the individual or the group. The other issue is the historian and his role in judging historical events, and this is related to a number of rulings and philosophies that dealt with this point, especially the philosophy of ethics and politics.

Human history does not move in chaos and without a goal. Rather, it is governed by laws and laws, such as those that govern the universe, the world, life, and things equally, and that historical facts are not created by chance, but through special conditions that give them this or that characteristic, or direct them towards this or that destiny.

Interpretation of history, then, means knowing the links that link separate events and incidents, studying them to clarify their motives, their connection and their results, extracting the divine Sunnahs and laws from them, and

Received: 13/9/2023
Accepted:25 /9/2023

Copyright: Damascus University- Syria, The authors retain the copyright under a CC **BY- NC-SA**

considering the lessons and bites in them, and it is a stage that comes after the critical study of the news. And he learns about its significance and effects, with the aim of interpreting the laws and defining the norms according to which the data of history are formed with its crowded and intertwined facts, in order to get hold of typical groups of influences that control the historical movement, and drive it in this direction or that, in what is known as the philosophy of history.

The philosophy of history is based on the existence of laws that control the course of history, and these laws must be discovered and dealt with. From this perspective, the historical interpretation of accidents becomes a human effort that may be right or wrong, because it falls within the field of theoretical studies.

Perhaps the oldest Greek historians who preserved history for us are: Hectaeus, Herodotus, Thecodides, and the last of the great Greek historians was Polybius. Through this research, we have tried to shed light on the vision of the Greek historians of the science of history and the extent of this science's interrelationship with the philosophy of history and the idea of this philosophy among these historians, which clearly contributed to the development of the view of history and its transformation into a science that is parallel and sometimes superior to other mental and human sciences.

Key Words: Philosophy, History, Philosophy Of History, Greece, Method.

المقدمة:

حصل جدل واسع حول فلسفة التاريخ من حيث ارتباطها بالتاريخ أي أنها من اختصاص المؤرخين أم مرتبطة بالفلسفة ونعني بها الفلاسفة، ولذلك توصل أغلب المختصون بأن فلسفة التاريخ هي جزء لا يتجزأ من الفلسفات التأملية التي تصل إلى قوانين من أجل ضبط حركة المجتمعات الإنسانية باستخدام التفكير الفلسفي؛ ثم أن هناك فلسفة تحليلية نقدية تستهدف تحليل الأحداث والتعمق في دوافعها واستخلاص القوانين بعيداً عن الشكوك.

وبهذا فإن هذه الفلسفة تاريخية تعتمد على نظرة تأملية من أجل إعطاء صورة شاملة للكون وليس صورة جزئية لحركتها، وتعتمد النقد والتحليل والمقارنة كأسلوب علمي موضوعي لفهم حركة الطبيعة أو حركة التاريخ.

فالعلاقة بين التاريخ والفلسفة لها أبعاد ومجالات هي المنهج الفلسفي والمنهج التاريخي وهذا الاختلاف حول طبيعة المنهج من خلال مواقف المثاليين والوضعيين باعتبار التاريخ علم أم أدب.

ورغم الخلافات حول أهمية التاريخ وماهية التاريخ فإن المؤرخ له دوره في الحكم على الأحداث التاريخية وهذا يرتبط بجملة من الأحكام والفلسفات التي عالجت هذه المسألة ولاسيما فلسفة الأخلاق. وأن تعدد مجالات التاريخ من فلسفات مادية ومثالية أدت إلى تعدد المناهج والفلسفات من الحضارية والعنصرية والجنسية والمادية والنفسية والمثالية والبطولية وغيرها.

أولاً: تعريف فلسفة التاريخ:

من الصعب جداً وضع تحديد دقيق لما تعنيه عبارة فلسفة التاريخ، فالفكر الحديث رغم تقدمه لا يزال عاجزاً عن تقديم تحديد واضح وحاسم لهذا المفهوم، فإذا كان التاريخ دراسة في أحوال الإنسان وحركته على الأرض، فإن كل مؤرخ يميل إلى تناول أحداث الماضي بما يملك من أفكار فلسفية وإيديولوجية، لذلك فمن الطبيعي أن يكون لهذه الأفكار أثرها الكبير في رؤيته التاريخية(الشرقاوي، 1981، ص 166).

وتعبير فلسفة التاريخ هذا لم يستعمل إلا في القرن الثامن عشر الميلادي، وذلك خلال عصر الأنوار بفرنسا، على يد فولتير، غير أن التفلسف في التاريخ بدأ فعلاً قبل ابتكار هذا التعبير بمدة طويلة(الحصري، د.ت، ص171)، حيث يرى شميت أن ابن خلدون هو الذي اكتشف الميدان الحقيقي للتاريخ (شرف ومحمد، 1978، ص 580.)، كما يرى كثيرون غيره أنه أبو التاريخ الحقيقي، أو مؤسس علم التاريخ.

لقد حصل جدل واسع حول مفهوم علم التاريخ[1]، وهذا أيضاً ينعكس حول مصطلح فلسفة التاريخ الذي فيه الأخذ والرد في وجهات النظر، وحول دراسة التاريخ في المستقبل بصورة فلسفية.

ويرى بعض المختصين أن فلسفة التاريخ تتضمن ركنين أساسيين، الأول هو عَدُّ فلسفة التاريخ جزءاً لا يتجزأ من معظم الفلسفات التأملية التي تحاول أن تستخرج من طيات التاريخ والقوانين التي تضبط حركة سير المجتمعات الإنسانية عن طريق استخدام التفكير الفلسفي أو المنطق الفلسفي. والثاني أنها فلسفة تحليلية نقدية تستهدف تحليل الأحداث والتعمق في دوافعها واستخلاص قوانين موضوعية خالصة بعيدة عن الشكوك.

[1] ظهرت تعاريف عدة للتاريخ وأهمية العلمية والحضارية ولكن لن يتم التطرق إليها وقد وتم تناول هذه التعاريف بشكل مفصل في كتابي الجامعي: حسام النايف، ميسون المرعشلي، المدخل إلى أصول البحث، مطبعة جامعة دمشق، دمشق، 2019-2020م/ 1441-1442هـ، ص 15-38.

ومن هنا نلاحظ أن هذه الفلسفة هي تاريخية تعتمد على النظر التأملي لإعطاء صورة شاملة للكون، وليس صورة جزئية لحركتها، وتعتمد النقد والتحليل والمقارنة كأسلوب علمي لفهم الطبيعة وحركة التاريخ.

إن العلاقة بين التاريخ والفلسفة تتضمن أبعاد عدة هي: المنهج وهو المنهج الفلسفي والتاريخي، وهذ الاختلاف حول طبيعة المنهج من خلال مواقف المثاليين والوضعيين بِعَدّ التاريخ علم أم أدب. ثم الجوهر وهو الخلاف الآخر حول موضوع التاريخ وحول مهمة المؤرخ وطبيعة التاريخ، وأثار تساؤلات عدة لمن يكتب التاريخ؟ وعن من يكتب؟ هل عن شخصيات رئيسة أدت دوراً في الأحداث التاريخية أم عن حضارات ومجتمعات وجماهير الناس التي صنعت التاريخ. أي يكتب للفرد أم للجماعة. والمسألة الأخرى المؤرخ ودوره في الحكم على الأحداث التاريخية وهذا يرتبط بجملة من الأحكام والفلسفات التي عالجت هذه النقطة ولاسيما فلسفة الأخلاق والسياسة.

وقد رأى المهتمون بفلسفة التاريخ إن هناك فجوات في أحداث التاريخ وتركيبته العامة والتي تحمل الغموض لا يمكن أن تملأ إلا بإضافة المنهج الفلسفي إلى المنهج التاريخي، أي طبيعة التاريخ تكتمل بالمنهج الفلسفي (الزيدي، 2006، ص 26–27).

إن فلسفة التاريخ مؤسسة على علم التاريخ، من حيث أنه علم الوقائع الموجودة في المكان والزمان(ويدجيري ، 1972، ص 229)، فالتاريخ لا يسير اعتباطاً، وإنما حسب حدود مرسومة، وهذه الحدود هي المنطق الذي يربط حوادث التاريخ وينظمها، وهذا المنطق عبارة عن فروض عامة، أي فلسفة تصبغ تموجات التاريخ بصبغتها (الخطيب، د.ت، ص 80).

فالتاريخ البشري لا يتحرك فوضى وعلى غير هدف، وإنما تحكمه سنن ونواميس، كتلك التي تحكم الكون والعالم والحياة والأشياء سواء بسواء، وأن الوقائع التاريخية لا تخلق صدفة وإنما من خلال شروط خاصة تمنحها هذه الصفة أو تلك، أو توجهها صوب هذا المصير أو ذاك (خليل، 1403هـ، ص 51).

فتفسير التاريخ إذاً يقصد به معرفة الروابط التي تربط الأحداث والوقائع المتفرقة، ودراستها لاستبيان دوافعها وارتباطها ونتائجها، واستخلاص السنن والنواميس الإلهية منها، والاعتبار بالدروس والعضات فيها، وهي مرحلة تأتي بعد الدراسة النقدية للأخبار، فالذي ثبت من الوقائع والأحداث هو الذي يفسر، وتدرس ارتباطاته، ويتعرف على دلالته وآثاره (السلمي، 1988، ص 15)، وذلك بهدف تفسير القوانين وتحديد السنن التي تتشكل بموجبها معطيات التاريخ بوقائعه المزدحمة والمتشابكة، من أجل وضع اليد على مجموعات نمطية من المؤثرات التي تتحكم بالحركة التاريخية، فتسوقها في هذا الاتجاه أو ذاك، فيما يعرف بفلسفة التاريخ (خضر، 1993، ص10).

ففلسفة التاريخ هي التي تبحث في الوقائع التاريخية، فتسعى لاكتشاف العوامل الأساسية التي تؤثر في سير هذه الوقائع، وتعمل على استنباط القوانين العامة التي تتطور بموجبها الأمم والدول (الحصري، د.ت، ص 71–72)، أي تهتم بتفسير وفهم مجرى التاريخ في ضوء نظرية فلسفية معينة، وتضع لعلم التاريخ أساساً فلسفياً، بحيث لا يبقى التاريخ مجرد سرد وتفسير للوقائع فقط، وإنما البحث عن القوانين الثابتة التي تتخطى الزمان والمكان، ولا تجري وفق الأهواء أو المصادفات، ومن ثم كانت مهمة فلسفة التاريخ هي الكشف عن هذه القوانين التي تفسر تاريخ البشرية، وفق تحليل دقيق للمصادر التاريخية ودراسة المصطلحات العامة التي يستخدمها المؤرخون في تفسير الوقائع التاريخية كالعلية والفرضية والقانون ونحوه (الحصري، د.ت، ص 28).

إن فلسفة التاريخ تقوم على أساس وجود قوانين تتحكم في سير التاريخ، وهذه القوانين يجب اكتشافها والتعامل معها، ومن هذا المنظور يصبح التفسير التاريخي للحوادث اجتهاداً بشرياً يحتمل الخطأ والصواب، لأنه يدخل ضمن ميدان الدراسات النظرية.

ثانياً: تطور مفهوم فلسفة التاريخ:

لقد تطور مفهوم فلسفة التاريخ في الدراسات الحديثة فأصبح مصطلحاً يشير إلى جانبين مختلفين من جوانب دراسة التاريخ، الجانب الأول يجعلها دراسة لمناهج البحث (الشرقاوي، 1981، ص 147)، أي الطرق والأساليب المستعملة للتحقق من الوقائع التاريخية (هيغل، د.ت، ص 30)، وهذه الدراسة تتضمن في جملتها الفحص الدقيق لمنهجية المؤرخ، ومن هنا يمكننا القول أن فلسفة التاريخ تقوم بدور الناقد الأعلى، إذ أنها تقوم باختبار دقيق لما يدعيه أصحاب المنهج التاريخي من معرفة أو حقيقة، وهذا الفرع يطلق عليه الفلسفة النقدية للتاريخ (الشرقاوي، 1981، ص 148).

أما الجانب الثاني فيتمثل في تقديم وجهة نظر عن مسار التاريخ ككل(هيغل، د.ت، ص 30)، وهو ما يطلق عليه الفلسفة التأملية للتاريخ، والتي تهتم بالأسباب المؤدية إلى ظهور أنماط معينة في حركة التاريخ، عن طريق اكتشاف القوانين المتحكمة في ذلك والتنبؤ على أساسها بالمستقبل(الشرقاوي، 1981، ص 148)، وهذه النظرة التأملية للتاريخ تمثل الدراسة التي يقوم بها المؤرخ للعصور السابقة بهدف استخلاص القوانين التي تحكم سير الحياة والإنسان والمجتمع والدولة والحضارة.

فلسفة التاريخ إذن هي نوع من المعرفة الاجتماعية التي تبحث في الاتجاه العام لسير البشرية، وتحاول إيجاد قانون عام يحكم التاريخ الإنساني، وبهذا تكون المهمة الأساسية الأولى لفلسفة التاريخ إماطة اللثام عن النظريات التي تقوم بتأويل الأحداث التاريخية وإعطاء معنى لها، و"كذا الكشف عن القوانين التي تتحكم في المسيرة التاريخية" (نصار، 1987، ص 178)، ومن ثم أصبح البحث في التاريخ وكتابته فناً من فنون التناول الفلسفي في تاريخ الفكر (السلمي، 1988، ص 10).

إن فلسفة التاريخ جاءت استجابة لحاجات حضارية حقيقية في المجتمع للإجابة على السؤال المهم: لماذا حصل ما حصل؟ ومما يذكر أن الفيلسوف فولتير كان أول من استعمل الكلمة المركبة "فلسفة التاريخ". وقصد بذلك عرض الأحداث التاريخية عرضاً منهجياً تحليلياً نقدياً أو علمياً. أو بتعبير أدق كان هذا المفكر يقصد بفلسفة التاريخ نوعاً من التفكير ليتقيد فيه المؤرخ بمقاييس منطقية بدلاً من الاعتماد ما جاء في الكتب القديمة (كولنجوود ، 1968، ص 30).

وقد سعى فلاسفة التاريخ لكيلا تصبح دراسته أكواماً من المعارك أو المعاهدات السياسية والأحداث المتسلسلة. دون منح هذه الحوادث أبعادها الحقيقية وتعليلها، ومن ثم فإنهم استهدفوا تحويل الدراسة التاريخية من التاريخ السياسي والعسكري إلى فلسفة الحضارة التي من مهمتها الأساسية أن تتسع دراسة التاريخ إلى ما هو أهم من سرد أخبار الملوك وسير الحكام ويوميات البلاط. إلى تتبع سير العقل البشري، وتتبع العلل التي توجه مظاهر النشاط الإنساني، وهذا يعني أن أصل فلسفة التاريخ يرجع إلى رغبة البشر في أن يجد الجواب لتفسير الحوادث المحيّرة، رافضاً فكرة المصادفة أو اعتبارها القوة المحركة في حركة المجتمع والتاريخ (العالم، 1969، ص 24). واجتهد كثيراً لكي يكشف القانون الذي يعلل تلك الأحداث؛ لأنه إذا اعتبر أن المصادفة هي التي تصنع الأحداث؛ فإن تعليل التاريخ أو فلسفته سينتهي حيث بدأ، فإذا صح أن أمور البشر تخضع للحوادث العمياء التي لا يقيدها نظام، فلن يكون لهذه الفلسفة أي مبرر لإضفائها على التاريخ (حسين، 2012، ص57).

وقد انتقد كبار مؤرخي وفلاسفة التاريخ فكرة المصادفة، فقد ذكر توينبي في معرض نقده لها قائلاً: "إن عمل الإنسان في التاريخ ليس كتلك التي تنقض في الليل ما تغزله في النهار، كما أن التاريخ ليس طاحونة يديرها مسجونين دون هدف سوى تعذيبهم" (تونبي، 1955، ج2، ص 125 ؛ صبحي، 1975، ص 264).

وأكثر من هذا فهناك من يرى بأن ما يحصل في التاريخ يمكن توقعه إذا ما تم رصد الحوادث بدقة ودراسة الظروف التي أحاطت بتلك الحوادث. وهذا يعني أن دارس التاريخ يستطيع أن يقدم أحكاماً كلية لها من العمومية والشمولية ما يمكنه من التنبؤ بما سيحدث، وهذا التنبؤ أو التوقع لا يحصل إلا بافتراض وجود قوانين عامة تحكم التاريخ وتصلح للتطبيق، وهي قوانين لا يمكن الوصول إليها إلا بالدراسة التجريبية أو الميدانية. وأعلن رواد المذاهب العلمية في التاريخ من رواد الفلسفية الوضعية والماركسية والتجريبية، أن بالإمكان الوصول إلى مثل هذه القوانين الكلية التي يمكن التنبؤ بالمستقبل من خلالها، وذلك عن طريق اخضاع مباحث التاريخ لمناهج البحث في العلوم، بما في ذلك من اعتماد على الملاحظة. غير أنه لا يشترط أن تكون الملاحظة مباشرة، لأن حركة التاريخ الدؤوبة لا تسمح للمؤرخ بتطبيق المنهج التجريبي كاملاً. ومع ذلك فقد ألح هؤلاء الفلاسفة على فكرة اكتشاف قوانين حركة المجتمع، وطالبوا المؤرخين بالبحث عن هذه القوانين والعثور عليها، وعلى غرار ما فعله زملاؤهم من علماء الطبيعة باكتشاف قوانين الحركة في الأجسام الطبيعية وفي الرياضيات والفلك، وبذلك يمكن أن تصبح تنبؤات المؤرخ علمية وقائمة على أسس يحكمها القانون العلمي (الشرقاوي، 1981، ص150).

وأخيراً فإن شدة ارتباط التاريخ بالفلسفة دون بقية المعارف الإنسانية المعروفة ولاسيما بالمعرفة العلمية، يعود سببها إلى أن العلوم، ولاسيما العلوم البحتة الصرفة، تقوم على منطق الكليات والقوانين الصارمة التي لا تقبل النقاش أو جهات النظر، إلا إذا حلّت نظرية جديدة محل أخرى قديمة أثبت خطأها بينما يقوم التاريخ على منطق يمكن الشك في صوابه. ولكن هذا لا يعني البتة أن التاريخ يبقى معرفة سائبة، بل أنه يحوي بالتأكيد على عنصر علمي، ومن ثم فإن مسيرته ليست حشداً من الأحداث الفريدة غير المترابطة بعضها بالبعض، وأن سجلاته ليست بالتأكيد حقيبة تضم أشياء من كل لون وشكل تم جمعها على أي وجه كان وهذه الحقيقة ترشدنا إلى ما يجب أن تكون عليه طبيعة المعرفة التاريخية وعلاقتها بالفلسفة (حسين، 2012، ص 61).

ثالثاً: فلسفة التاريخ عند اليونان:

1-بداية الوعي التاريخي عند اليونان:

إن تاريخ اليونان، يشبه تاريخ أي منطقة، وهو ليس مجرد تاريخ أفراد إنما تاريخ مجتمع بأكمله وبأفراده وطبقاته، وما يدور بين هؤلاء الأفراد من حوار وعلاقات واحتكاكات بمختلف المجالات السياسية-الفكرية-الدينية.

ومن الملاحظ أن كتابات المؤرخين والفلاسفة اليونان ثانوية غير قاطعة أو جازمة في الحدث التاريخي لتأثرها بميول أصحابها. وقد تميز المفكرون اليونانيون (الإغريق) بشغفهم في البحث عن الحقيقة والتحري والتعليل والفلسفة التي كانت من ابداعاتهم الفكرية. وتميزوا أيضاً بالتفكير العقلي الذي وجههم إلى التاريخ فحاولوا الإجابة عن أسئلة تتعلق بأمور يعتقد الإنسان أنه يجهلها (باقر، حميد، د.ت، ص 69؛ هرنشو، 1944، ص 18). إذ أصبحوا ينظرون إلى حقائق الأشياء، غير مشوبة بشفافية الخرافة وأقبلوا يتعرفون على العلل الطبيعية لظواهر كانت حتى وقتهم تضاف إلى ما لا يحصى من أهواء آلهة لا تحصى. إذ مثل تنبؤ تاليس المالطي بكسوف الشمس في عام 585 ق.م، وتحقق تنبؤه إيذاناً بتفتح عصر جديد في تاريخ العقل البشري وقد تملك اليونان منذ ذلك اليوم شغف البحث أي ما يسمونه باليونانية " إيستوريا" أي تاريخ (الملّاح، 2007م، ص 4).

يرجع بعض المؤرخين الكتابة التاريخية عند اليونان إلى الملاحم الأدبية والشعرية ولاسيما الملاحم التي نُسبت إلى هوميروس، ونلاحظ فيها رغم الخرافات الحس التاريخي المشوش وغير المنضبط، وإن الكتابة التاريخية ظهرت في منتصف القرن السادس ق.م في مليطيا والجزر الايونية، ولكن نلاحظ أن التدوين التاريخي لم يظهر بوضوح إلا بعد فترة من الاحتكاك مع حضارات أخرى في

التجارة او في الحروب. ولكن يمكن أن نقول ان التاريخ عندهم اتجه إلى العقلانية وارتبط بالإنسان وحياته الاجتماعية. وهناك من يرى فكرهم التاريخي والفلسفي قد بقي محتفظاً بأساطيره الدينية عند الايونيين (الزيدي، 2006، ص36).

وجدير بالذكر أن هناك فارق كبير بين مفهوم التاريخ والفكر التاريخي عند اليونان. فالتاريخ في أبسط معانيه هو التقليد الفطري لدى كل إنسان في حرصه على معرفة الماضي، وتسجيله بنظرة مستقبلية. والدافع هو حرص الإنسان على إخباره لحفظ إنجازاته وهذه السجلات لا تمثل سوى المادة التاريخية لكنها ليست فكراً تاريخياً.

أما المقصود بالفكر التاريخي[2] يتمثل بالموقف العقلي الذي يتخذه ويلتزم به المؤرخ في تعامله مع المادة التاريخية، وكلما ازداد المؤرخ في موقفه العقلي نقداً للمادة التاريخية ازداد فكره التاريخي وضوحاً واستقلالاً وأعانه على ذلك النفاذ إلى جوهر الحقيقة التارخية وهي منزلة من العسير الوصول إليها.(سارة، 2007، ص 75).

الرأي القائل إن أول كتابة تاريخية ذات شأن ظهرت عند اليونان كانت في الأشعار المنسوبة إلى هوميروس صاحب الملحمتين الخالدتين الأليادة والأوديسة له أساس في الواقع. وفي أشعار هوميروس معلومات وافرة عن المجتمع اليوناني والثقافة اليونانية، ويمكن تكوين صورة واضحة لحضارة عصره من الاطلاع على أشعاره. ولكن ميلاد الكتابة التاريخية الحقيقية عند اليونان كان يستلزم خلفية تاريخية لم يتيسر ظهورها عند اليونان إلا في القرن السادس قبل الميلاد، وهذه الخلفية هي ظهور الكتابة النثرية والنظرة الناقدة إلى الأساطير الشائعة بواعث الاهتمام بالبحث عن أصول المجتمع ونشأة النظم والقوانين والعادات والتقاليد (بارنز، 1987، ج1، ص 47؛ أدهم، د.ت.، ص 22).

ونظراً لاختلاف المؤرخين في قدرتهم العقلية على ممارسة النقد الصارم والالتزام بالحياد الكامل، فقد اختلف فكرهم التاريخي تبعاً لذلك منزلة ونضجاً. ويتضح من ذلك أن الشرط الأول لنشأة الفكر التاريخي، هو توافر ملكة النقد لدى المؤرخ. وهذا ما بدا واضحاً وجلياً لدى مؤرخي المدن الإغريقية على الساحل الغربي لآسيا الصغرى في القرن السادس قبل الميلاد وبداية القرن الخامس قبل الميلاد وهو نتيجة لظهور الفكر الفلسفي الأول في تلك البلاد، ولصحوة العقل الإغريقي بتأثير العلم والنزعة العقلية. (سارة، 2007، ص 75-76).

ولعل أقدم مؤرخ يوناني حفظ لنا التاريخ هو هيكاتايوس "Hecatacus" الذي ولد في مدينة الملطية في عام 546 ق.م. وهي على ساحل الأناضول المطل على بحر إيجة. وقد كان رحالة، وكتب عن أصل اليونان وانسابهم وهجراتهم وانتقد طريقة اليونان في تدوين التاريخ، وتركهم تمحيص الحقائق واعتمادهم على الأساطير، ودعا إلى تحكيم العقل والعناية باستسقاء الأخبار (أدهم، د.ت.، ص 23) وربما كانت الافتتاحية لكتابه المسمى " الأنساب" هي أول محاولة يقترب بها المؤرخ من طبيعة النقد التاريخي اقتراباً شعورياً عن وعي صادق وهو يقول في الافتتاحية هو يقول: "لست أدون هنا إلا الرواية التي اعتقد صحتها وصدقها، فإن

[2] عُرف عن الشعب اليوناني حب المعرفة والتأمل وقد بدا هذا واضحاً وجلياً فيما فرضته عليهم الظروف الجغرافية التي جزأت الإغريق إلى مناطق منعزلة أدت إلى ظهور دويلات المدن "Polis". إلا أن هذا الانعزال خلق ضرورة الاحتكاك الدائم واليومي بين مواطنيها مما دفعهم إلى مناقشة أمور مجتمعهم والبحث عن حلول لمشكلاتهم وبالتالي قبول الرأي والرأي الآخر وهذا الاحتكاك ساعد على نضوج الفكر التاريخي والتطور السريع في البحث عن الحقيقة التاريخية وهذا التفكير والتأمل والنضوج العقلي والفكر بلور ما يسمى بالفكر الفلسفي اليوناني الذي يستند بالدرجة الأولى على إعمال العقل نحو التأمل والرغبة في اتساع المعرفة واتساع أفق الخيال أو ما يسمى النقد الصارم للحدث التاريخي، من خلال وفرة ملكة العقل للنفاذ إلى جوهر الحقيقة. ومن هنا نشأت لدى فلاسفة الإغريق فكرة البحث عن المثل الأعلى للمدينة الفاضلة. وكان أهم أماكن التي ظهرت نتيجة هذا التطور الفكري الفلسفي الساحة العامة "Agora" والتي شكلت مجالاً واسعاً للمنافسة والنقاش والجدال بصوت عالٍ وعرض المبادئ والنظريات الفلسفية والجدل في صحتها. إن هذا الواقع المفروض على الشعب اليوناني أجبر كل فرد أن يلم بشؤون مدينته ليكون قادراً على الجدال والمناقشة الفلسفية.

أساطير اليونان كثيرة، وفي رأيي أنها تدعو إلى السخرية (هرنشو، 1944، ص 18)". وقد زار هيكاتايوس مصر في القرن السادس قبل الميلاد، وسجل في كتابه الذي فقد الكثير من المعلومات التاريخية التي أمده بها الكهنة، ولو أنه اهتم بفيضان النيل وتكوين الدلتا وحيوانات مصر أكثر من اهتمامه بسكان البلاد وتاريخهم (لحويري 2001، ص 46).

وكان هيكاتايوس أول من قدم إرهاصاً واضحاً في مجال منهج البحث العلمي في التاريخ، فجعل الحقيقة مقياساً لما يرد من أخبار. فضلاً عن أنه اتخذ منهجاً نقدياً صريحاً تجاه الأساطير اليونانية (باقر، وحميد 1980، ص 70).

2- هيرودوت وتأسيس علم التاريخ:

وجاء من بعد هيكاتيوس مؤرخ كبير هو هيرودوت (484-425 ق.م)، واختلف الناس في أمره والحكم على كتاباته، على أن اختلافهم هذا لم يغض مطلقاً من شهرته، فهو بين الناس دائماً "أبو التاريخ" وبين المؤرخين إمام خالد، ومَثَل غير مسبوق (خفاجة، 1987، ص 9-11). ولقد فطن هيرودوت -عن إدراك وتقدير دقيق- أن التاريخ علم، أو من الممكن أن يكون علماً، ومن ثم لابُدَّ أن يعرض لأعمال الإنسان، وأدرك هيرودوت أن التاريخ ليس من قبيل الأسطورة، وإنما هو من قبيل البحث العلمي. إن كلمة "تاريخ يونانية في الأصل ومعناها بحث أو استقصاء، التي اتخذها هيرودوت عنواناً لكتابه قد استحدث بهذا ثورة في التأليف. إن تحويل الأساطير إلى تاريخ علمي لم يكن بالأمر المألوف عند العقلية الإغريقية، وإنما كان فتحاً جديداً في القرن الخامس قبل الميلاد أتى به هيرودوت (كولنجوود، 1986، ص 56-58).

وقد وُلد هيرودوت في هاليكارناسوس إحدى مدن الركن الجنوبي الغربي من آسيا الصغرى التي كانت تتبع آنذاك دولة فارس، وزار كثيراً من أقاليم الدنيا في قارتي آسيا وإفريقيا، ثم في أوروبا أيضاً. ويهمنا أنه قام بزيارة مصر التي كانت خاضعة للحكم الفارسي، وقد تمت تلك الزيارة ما بين عامي 448 و 445 ق.م.، وزار خلالها الكثير من مدن الدلتا، كما تجول في الصعيد حتى الجندل الأول، وشاهد إقليم الفيوم. وقد خصص هيرودوت الجزء الثاني من كتابه الشهير لمصر فتحدث فيه عن جغرافيتها ومدنها، والحوادث التي مرت بها، وأعمال ملوكها ومظاهر حضارتها. ومن الغريب أنه قد أسهب في الحديث عن أهرام الجيزة ولكنه لم يشر مطلقاً إلى تمثال أبي الهول، كما أوجز هيرودوت إيجازاً مخلاً حينما تحدث عن طيبة، ولجأ إلى تدوين كل ما سمعه أو رآه أثناء إقامته بمصر دون تدقيق أو تمحيص، فجاء كتابه جامعاً الثمين والغث، حاوياً الكثير من الحقائق والأنباء الصادقة بجانب الكثير من المفتريات والأكاذيب والمزاعم التي لا تستحق ذرة من الثقة(زايد، د.ت.، جزء 1، ص 112-113).

وكان السبب الذي أطلق على هيرودوت لقب (أبي التاريخ) من أنه بدأ كتابة تاريخه منتهجاً نهج الإخباريين، ثم اكتمل نضجه العقلي فيما بعد ليصبح ذا فكر تاريخي متميز وتصور عام لحركة التاريخ. (هيردوت، 2001، ص 23)؛ (سارة، 2007، ص 79).

وعلى الرغم من ذلك كان هيرودوت رحالة مطبوعاً على حب الاستطلاع والحرص على التزود من المعرفة، وكان يسأل ويستفسر ويجمع المعلومات والاخبار بمختلف الوسائل والطرق، ويحاول أن يتعرف على العادات والتقاليد والعقائد والأديان والقوانين والنظم، ولا يكاد يفلت من اهتمامه الفاحص ونظرته الشاملة شيء، وبقوة عبقريته استطاع أن يضمن كتابه كل ما رآه بعينيه وسمعه بأذنيه، في أسلوب جذاب، وعرض شائق، مما جعل كتابه من طرائف كتب التاريخ الخالدة (أدهم، د.ت. ص 26).

وتعود شهرة هيرودوت وعظمته إلى كتابة التاريخ العام أو تاريخ الحروب بين اليونان والفرس، الذي عالج فيه أخبار الحروب اليونانية الفارسية (490-480 ق.م) إذ بدأه بمقدمة شرح فيها ماضي الأمتين اليونانية والفارسية من النواحي جميعاً. وعلاقتها بغيرهما من الأمم والشعوب وجغرافية البلدين وعادات أهلها وتقاليدهم وأخلاقهم.

وتعد مقدمة هيرودوت في كتابه "تاريخ الحروب بين الإغريق وفارس" أشهر افتتاحية كتبها مؤرخ على الإطلاق، كما أنها تطلعنا مباشرة على فكر هيرودوت التاريخي. وجاءت كما يلي: "**هذه نتيجة أبحاث هيرودوت الهاليكارناسي التي يقوم بنشرها حتى لا يطوي النسيان بفعل الزمن ما حدث في ماضي الإنسانية، وحتى لا تفقد نصيبها من المجد والشهرة الأعمال الجليلة والباهرة التي أنجزتها الشعوب الهيللينية والشرقية، وبصفة خاصة الأسباب التي ادت بدورها إلى نشوب الحرب بين الجانبين**" (هيرودوت، 1972، ج1، ص1) ؛(سارة، 2007، ص 80).

ومن هذه الافتتاحية يمكن استخلاص وتفسير الفكر التاريخي عند هيرودوت بثلاث نقاط أساسية: الأولى: أنه أطلق اصطلاحاً جديداً لم يسبقه أحد في استخدامه في مجال الكتابة التاريخية فاستخدم كلمة "Historia" بمعنى البحث والدراسة . والنقطة الثانية تجلت في محاولته دراسة ماضي الإنسانية جمعاء وهو بهذا المعنى يُعد أول تاريخ إنساني على الإطلاق. أما النقطة الثالثة والأخيرة فتتمثل بدراسة التاريخ وفقاً للعلل والأسباب؛ (سارة، 2007، ص 80–81).

ثم تناول تاريخ كل مملكة منذ أن كانت مملكة صغيرة إلى أن أصبحت إمبراطورية كبيرة. وبعد أن انتهى من كتابة المقدمة عالج موضوع البحث الغزو الفارسي لبلاد اليونان، وكان في تدوينه لهذا الموضع يشير إلى معلومات كثيرة عن الشعوب والأمم الأخرى، مثل بلاد بابل وآشور ومصر وشمال إفريقيا(ذنون طه، 2004، ص 71).

وقد انتهز هيرودوت فرصة الصراع بين الفرس واليونان، وبين أوروبا وآسيا، او بين الشرق والغرب، فأمكنه تدوين هذا الصراع في كتاب تجرد فيه عن الهوى والتعصب الجنسي. وفي هذا الكتاب تصدى هيرودوت لوصف الحضارات الشرقية، ولم يكن معنياً بتاريخ الأقوام المتحضرين فحسب، بل كان حريصاً على الوقوف على أخبار الأقوام المتخلفين وعاداتهم وتقاليدهم، وهو لذلك لا يعد أباً للتاريخ فحسب، بل يعد كذلك أباً لعلم التاريخ الطبيعي للأجناس البشرية "الأنثروبولوجي" (بارنز، 1987، ص 49).

وكانت إفريقيا ولاسيما جزءها الشمالي تعرف لدى اليونان باسم ليبيا ومع أن الأخبار التي رواها هيرودوتس يشوبها الكثير من الأساطير، إذ كثيراً ما يرويها كما سمعها، فإنه يمكن عده أول مؤرخ تناول حياة الشعوب وعاداتها ونظمها ومما لا شكَّ فيه أن أسفاره إلى الأقطار المجاورة مثل مصر وشمال إفريقيا وبلاد بابل قد مكنته من جمع تلك الأخبار والمعلومات الطريفة، وكان هيرودوس قد عمم اصطلاح "Historia" وقد قسّم تاريخه على تسعة كتب أو أجزاء سمي كل منها باسم إحدى الآلات التسع الخاصة بالأدب والشعر والموسيقى باقر، حميد، 1980، ص 26).

وقد حدد هيرودوس غايته في بداية مؤلفه بأنه: "**صون ذكرى أعمال اليونانيين والبرابرة بصفة خاصة وقبل كل شيء أو ذكر علة صراعها بعضها مع بعض وقد صادف أتباعاً قلائل في العالم**" (كار، 1962، ص 113)، وأضاف قائلاً: "**إنما يدون التاريخ كيلا يطمس الزمان أعمال الرجال وتبقى المآثر الكبرى والإنجازات الساحرة بلا تمجيد ولا إعجاب**" (السلماني، 2010، ص 30).

وقد اعتمد على القصص التي يدلي بها شهود العيان، ولكنه لم يصدق كل ما قُصَّ عليه بلا تغيير أو تحليل، بل أخضع ذلك كله للنقد والتحليل الدقيقين، وبهذا يعطينا صورة عن العقلية اليونانية (ذنون طه، 2004، ص 79).

وتتكشف أيضاً طبيعة ومنهجية هيرودوت من بعض ما ذكره هو عن نفسه حيث يقول: "**إلى هنا كان اعتمادي في كل ما ذكرت على المشاهدة الشخصية وتحكيم العقل ومواصلة البحث، ومنذ الآن سوف أشرع في قول ما رواه المصريون لي، مضيفاً إليها شيئاً مما شاهدته بنفسي**) (هيرودوت، 1972، ج2، ص99)، وفي مكان آخر يقول: "**إني مضطر إلى أن أقص عليكم ما يُنقل**

إلي، ولكني غير ملزم بتصديقه، وأحب أن يُصدق هذا القول على كل قصة أرويها في هذا التاريخ".(هيرودوت، 1972، ج2، ص99) (سارة، 2007، ص 82) "

وفي ضوء ما تقدم نرى أن هيرودوت استعمل مصطلح التاريخ لمعنى البحث عن الحقيقة في الحوادث الماضية، فلا عجب إن وجدنا هذا المؤرخ ينشئ أسفاره الكثيرة والطويلة، لكي يحقق بنفسه كثيراً من الوقائع التاريخية ليسجلها بأسلوب كتابي وبلغته الخاصة (الملاح، 2007م ، ص4).

وقد حرص هيرودوت على ذكر جميع الروايات لفكرة أعم وأشمل، وهي أنه كان حريصاً على تقديم صورة متكاملة للمجتمعات التي عرفها بجوانبها المختلفة الإيجابية والسلبية، في عاداتهم وتقاليدهم، وأنماط حياتهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية. فلذلك كان هيرودوت حريصاً على حسم التناقض بين الروايات بأن يوردها كما هي، تاركاً للقارئ أو السامع حرية اختيار ما يشاء أو استخلاص ما يشاء استخلاصه.

وعلى هذا فنحن، يجب أن نعتمد في كتاباته في شيء من الحذر، ونحاول أن نحققها بالمقارنة مع الآثار الموجودة، ومع المعلومات التي نستطيع أن نحصل عليها من مصادر أخرى، أو على أضعف تقدير نضعها موضع التحليل المنطقي بحيث نرى إذا كانت مرجحة أو محتملة أو غير ممكنة على الإطلاق.(سارة، 2007، ص 84).

3- ثوكوديدس وتطور فلسفة التاريخ:

ومن معاصري هيرودوت ثوكوديدس (456-396 ق.م) الذي ركّز كتابته حول موضوع واحد هو موضوع الحروب البلوبونيزية، التي قامت بين أثينا وإسبرطة في الثلث الاخير من القرن الخامس قبل الميلاد، وبذلك جاءت كتابته ملمة بكل تفاصيل الموضوع، وفي أنه كان معاصراً معاصرة كاملة لما يكتب منه، بل إنه اشترك في بعض مراحل هذه الحرب كقائد من القواد الأثينيين اشتراكاً مباشراً كما كان على صلة بالساسة الكبار الذين كانوا على رأس الفئات السياسية المتعارضة في أثينا، وعلى هذا جاءت معلوماته مباشرة إلى أبعد حد ممكن. وقد امتاز ثيوكيديدس بأنه حلل الحوادث والمواقف والشخصيات تحليلاً اجتماعياً ونفسياً عميقاً، فكان بذلك أول مؤرخ يتبع المنهج العلمي التحليلي في كتابة التاريخ (عبد الوهاب، 1979، ص 61-62).

وقد كان أسلوب المؤرخ الذي خلقه في كتابة التاريخ في الحضارة اليونانية وهو ثوكوديدس "Thucydides" في سنة (460-399ق.م) يتميز بالجفاف والتكلف؛ إذ احتقر القصاصين لمزجهم التاريخ بالأدب عرضهم أحداثه بأسلوب أدبي، يؤثر في الحقيقية التاريخية ويفقدها روعها وصدقها، ولهذا فإن ثوكوديدس كان أقرب المؤرخين اليونان السابقين إلى الدقة العلمية، وهي إحدى أهم الصفات الأساسية للمؤرخ الحق، واستعمل ثوكوديدس النقد في معظم أخباره فجاءت كتاباته أقرب ما تكون إلى الطريقة الحديثة في التأليف التاريخي، وفسر التاريخ في ضوء أسباب منطقية أساسها العقل، وابتعد عن الخرافات والأساطير، والاستطرادات التي كانت عند هيرودوس، والتزم بنطاق بحثه التزاماً كاملاً (ذنون طه، 2004، ص 79؛ باقر، 1980، ص 26).

يشكك ثوكوديدس في معرفة الماضي بقوله: " **تلك هي نتائج أبحاثي في دراسة الماضي، على الرغم أنه يصعب في ها المجال مصداقية كل ما ورد من الشواهد والأدلة، فالناس يتقبلون الواحد من الآخر، كل ما يروى عن أحداث الماضي، بما في ذلك أحداث بلادهم، ليس فقط من الماضي الذي لا نعنيه ذاكرة، ولكن أيضاً عما هو قائم الآن**" (توكوديدس، 1981، ج1، ص20)؛ (سارة، 2007، ص 94).

كان ثوكوديدس أقرب إلى روح المؤرخ الحديث من هيرودوت بتحرره من سرد القصص والاستطراد وتشدده في استبعاد الأساطير والخرافات وسخريته من التنبؤات والغيبيات حتى جاء عرضه علمياً في غير جفاف، إذ استطاع أن يعوض عن الخيال دقة تصوير الواقع وما فيه من مآسي، وبذلك استبقى عنصر التشويق بعد أن احتفظ بالحقيقة المجردة الخالدة على مدى العصور، وبذلك لم يكن مجرد رواية وإنما يعد مبتكر التاريخ النقدي (صبحي، د.ت.، ص 124). فقد كان لا يقبل الأخبار والروايات التي تصل إليه على علاتها، بل يخضعها لمقاييس النقد والموازنة ويستخلص منها ما يعتقد أنه أقرب إلى الصدق من غيره، وقد استعمل هذه الطريقة النقدية في جميع ما كتب فجاءت كتاباته، ومنها موضوعه عن حرب البلوبونيز اقرب ما تكون إلى الطريقة الحديثة في التأليف التاريخي، بعكس أسلافه الذين كانوا أكثر منهم مؤرخين (حاطوم وآخرون، 1964، ص 98–99).

هذه العبارات تمثل نقداً لما فعله هيرودوت في تاريخه، كما تمثل تحذيراً لمعاصريه حتى لا يستعيدوا أخطاء الماضي عن غير وعي. ونظراً لعدم ثقة ثوكوديدس في إمكان دراسة الماضي أو معرفته معرفة يقينية، نجده يقرر لمعاصريه وللأجيال التالية نموذجاً من الدراسة التاريخية التي يمكن أن يوثق في صحتها، وهي التصدي للكتابة عن التاريخ المعاصر مباشرة. (سارة، 2007، ص 94).

أما من حيث منهجه في كتابة تاريخه المشهور، فهو يؤكد أنه قد فعل ذلك بمنهجية علمية نقدية وقاسية، وهذا ما أدى به إلى أن يحدثنا عن مقدار الصعوبات التي واجهها في هذا المجال فيقول: "**فيما يتعلق بحقائق الحرب المادية، لم أقنع بقبول أول رواية تصلني أو حتى انطباعاتي الشخصية ، فأنا لم أكن شاهد عيان بنفسي، فكنت أتقصى بكل دقة ممكنة كل معلومة بلغتني من شخص آخر، وهي عملية غاية في المشقة، إذ حدث، أن شهود العيان للحادثة الواحدة أدلوا بروايات اختلفت باختلاف ميولهم أو باختلاف قوة ذاكرتهم**". (توكوديدس، 1981، ج1، ص22) (سارة، 2007، ص 95).

ومن الواضح أن ثوكوديدس لم يدخر وسعاً أو جهداً في الحصول على شهادات الشهود، ما أمكنه من المناسبات ذات العلاقة بالأحداث، وإن لم يستطع ذهب وارتحل إلى كل ما اعتقد أن لديه معرفة وثيقة بما حدث. وفي كل مرة لم يقنع بانطباعاته الشخصية، ولا برواية واحدة. (سارة، 2007، ص 96).

إن عظمة ثوكوديدس وشهرته بالنسبة إلينا مبنية على كتابه التاريخي المشهور " تاريخ الحروب البلوبونيزية بين أثينة وإسبارطة 431–404 ق.م)، وفيه يحدد ثوكوديدس في مقدمة تاريخه غرضه من تأليف الكتاب. كما يحدد السبب الحقيقي للحرب بقوله: "**أما السبب الحقيقي للحرب في رأيي، فربما لا يتضح فيما يعلن من تصريحات، لأنني اعتقد أن الخوف الذي أصاب الإسبرطيين من ازدياد قوة الأثينيين، جعل الحرب أمراً لا مفر منه**".(توكوديدس، 1981، ج1، ص23)؛ (سارة، 2007، ص 96).

ومن خلال ما سبق نستطيع ان نلخص منهجية ثوكوديدس وفكره الفلسفي بأنه كان علمياً ونقدياً، واستطاع ابتداع طريقة نقدية جديدة تقوم على اعتبار أن التاريخ علم تجريبي أي الاستفادة من تجارب الماضي في مواجهة المستقبل، واخيراً اعتماده في كتابته على النقل من المصدر كما سمع أو كما قيل بدون تحريف.

4–بوليبيوس وكتابة التاريخ:

أما آخر كبار المؤرخين اليونانيين فقد كان بوليبيوس (198–117 ق.م) وهو نظير ثوكوديدس في تحري الدقة العلمية، ولكن أسلوبه ليس سلساً مثل أسلوب هيرودوت أو ثوكوديدس ، وكان ذلك من أسباب ان القراء لم يقبلوا على قراءته إقبالهم على قراءة الاثنين الآخرين، وتاريخه محاولة لتناول امتداد الجمهورية الرومانية وتطور نظامها السياسي حتى سنة 146 ق.م. وكان أكثر

تأكيداً من ثوكوديدس لمسألة المؤرخ المؤهل لكتابة التاريخ لابد أن يكون من كبار رجال الأعمال، ويفضل أن يكون قائداً سياسياً (بارنز، 1987، ج1، ص 54؛ أدهم، د.ت، ص 31).

وبوليبيوس يوناني الأصل والنشأة والثقافة، ولكنه قضى معظم حياته في روما. ولد في مدينة ميجالوبوليس بمقاطعة أركاديا، وبدأ حياته مجاهداً ضد سيادة روما على بلاده، ودعا إلى الاتحاد ضدها مخالفاً ما ذهب إليه معظم الزعماء من الرغبة في الاندماج في الدولة الرومانية. ولكنه سرعان ما خضع لمنطق الحوادث بعد أن انتصرت روما واستقرت في يديها مقاليد الأمور، وانتقل إلى روما وشغل وظائف هامة، لاسيما أنه كان رجل حرب، كما هو رجل سياسة وتاريخ. وقام وهو في روما بتثقيف طائفة من أبناء الأسر الحاكمة. وقد أتاحت لهذه الصلة التعرف إلى كثير من رجال الدولة وكبار ساستها. وشغل وظائف التمثيل السياسي، فكثيراً ما كان يقوم بدور المبعوث السياسي إلى بلاد الإغريق، وإلى كثير من بلاد العالم المتمدن في أوروبا وإفريقية، كمصر وإسبانيا وبلاد الغال (فرنسا). وقد أفادته هذه الأسفار فائدة محققة، وأتاحت له الوقوف على طائفة من نظمها السياسية وأخبارها وتقاليدها الاجتماعية. وكان يسترشد وهو يكتب بما شاهده من تجارب وحوادث، لاسيما وقد لمس بنفسه أهوال الحرب ومشاقها. وكانت حياته مليئة بالعبر والعظات، فما كان يقنع بسرد الأخبار، ولكنه كان يتعمق في تحليلها، ويستنتج منها ما تنطوي عليه من علل وأسباب أصيلة. ويبدو أنه كان من أنصار النظرية القائلة بأن "التاريخ هو المدرسة الحقيقية للنظريات السياسية" (الخشاب، 1953، ص 190–191).

ينحصر الفكر التاريخي عند بوليبيوس في نقطتين مهمتين وأساسيتين: النقطة الأولى: هي اقتناعه بمبدأ عالمية التاريخ، والثانية: هي اقتناعه المطلق بأهمية التجربة الرومانية في التاريخ، باعتبارها تجربة فريدة ليس لها سابقة في التاريخ القديم على الإطلاق، ولذلك رآها جديرة بالدراسة والتأمل التاريخي (العبادي، ص35) (سارة، 2007، ص 112).

"**أي عقل مهما تكن طبيعته –لا يستثيره الشغف ليعرف كيف حدث أن خضع العالم بأسره تقريباً لسلطان روما المفرد خلال فترة لا تتعدى ثلاثة وخمسين عاماً، وأي نظام سياسي يرجع إليه الفضل في تحقيق مثل هذا الإنجاز الذي يمثل ظاهرة لا مثيل لها في سابق التجربة البشرية**" (سارة، 2007، ص 113).

وكان بوليبيوس أقرب ما يكون إلى النزاهة في كتابة تاريخ الرومان واليونان. ويعد الجزء السادس من كتابه خير تعليل للمثل العليا السياسية الرومانية وأساليب الرومان في الحرب، وقد رأى أن العبقرية السياسية الرومانية قد تجلت في اتخاذ نظام للحكم يجمع بين النظام الملكي والنظام الديمقراطي. وكان بوليبيوس نافذ الرأي في الحكم على السياسات ودارساً متعمقاً للأحداث والشخصيات، وكان يؤكد قيمة المعرفة الجغرافية في استجلاء حقائق التاريخ وتقلباته، والتاريخ في نظره من الدراسات النافعة، ومعرفة الحقائق التاريخية المؤكدة قد تعين في تنظيم إدارة الحكم وتوجيه الأحوال العامة، وحل المشكلات العارضة، وتفريج الأزمات المفاجئة (بارنز، 1987، ج1، ص 54–55؛ أدهم، د.ت، ص 32–33).

وهو مقتنع بأن وحدة تاريخ العالم قد تحققت نتيجة لقيام دولة روما العالمية. وأصبح العالم يعيش في عصره تجربة جديدة هي تجربة وحدة تاريخ العالم فنجده يقرر: "**أنه في العصور السابقة كانت أحداث التاريخ منفصلة ومستقلة بعضها عن بعض في أسبابها ونتائجها بقدر انفصال أقاليمها، ولكن منذ ذلك التاريخ فصاعداً، اكتسب التاريخ وحدة عضوية، فأحداث إيطالية وإفريقية أصبحت متشابكة مع ما يحدث في اليونان وآسية، وكأن تاريخ العالم قد أصبح يتجه إلى مصير واحد**" (سارة، 2007، ص 114).

كان بوليبيوس أثناء سعيه جاهداً إلى البحث عن علل الحوادث وترابطها، قد تكتشف له عدة نظريات في العلة التاريخية، مما حمله تدريجياً على أن يعدل تفسيره لسيادة روما على العالم. ففي أول الأمر بدا له أن الحظ أو الصدفة –وهي قوة علوية لا سبيل إلى التنبؤ بها– هي القوة الرئيسية الدافعة أو المحركة في التاريخ. فلما ازداد اعجابه بالرومان على مر الزمان، بدأ يعلل سيطرتهم العالمية بعوامل إنسانية كخصالهم القومية ونظمهم السياسية. وفي هذه المرحلة من تفكيره أشاد بالتوسع الاستعماري الروماني باعتباره نعمة على العالم، وتراءى له أن يشرح لبني قومه اليونان تفوق روما السريع وتبوأها مركز السيادة في العالم في غضون مدة لا تزيد كثيراً عن نصف قرن (220–168 ق.م)، وهو امر لا نظير له في التاريخ، وأن ينصحهم بعدم جدوى الاستمرار في مقاومة مثل هذه الدولة القوية (أحمد علي، 1964، ص 57–58).

وأخيراً امتد به الأجل ليرى بعينيه تفشي الفساد بين الطبقة الارستقراطية وتدهور هيئة السناتو، مما زعزع إيمانه باستقرار روما الدستوري. ومن ثم أصبح أقل محاباة للرومان، وعدل آراءه السابقة وارتد إلى نظرية الحظ أو القدر الإلهي. ونجد ما يوحي باعتناقه فكرة الدورات التاريخية المتكررة فيما يتصل بحلقات التدهور في روما من حكم الارستقراطية إلى حكم الدهماء أو الرعاع (الحويري، 2001، ص 46).

وعلى أية حال، يُعدُّ بوليبيوس فريداً بين المؤرخين القدماء، لم يهدف إلى إنتاج مؤلف ذي صبغة أدبية، فاستبعد الصور البلاغية، ولم يدمج في تاريخه إلا عدداً قليلاً من الخطب. وقد عالج مادته التاريخية بطريقة علمية لا نلتقي بمثلها في ميدان التاريخ حتى القرن التاسع عشر الميلادي. وحللَّ أسباب الأحداث السياسية تحليلاً موضوعياً يدل على نظرته الواقعية، وخبرته العسكرية، وإلمامه بجغرافية الأقاليم وتخطيط البلدان، واعتقاده بوحدة التاريخ المتكاملة، غي أنه كان كأغلب المؤرخين القدماء يأخذ بنظرية نفعية التاريخ باعتباره سجلاً حافلاً بالدروس العملية لرجال الحكم والسياسة، وقد عنى مثلهم بإبراز دور الفرد في التاريخ.

إن التاريخ كعلم قد تأسس عند اليونان قبل أرسطو بأكثر من قرن من الزمان على يد هيرودوت وثوكوديدس، كما تدعم وجوده وبلغ درجة كبيرة من النضج العلمي بعد أرسطو. وتم ذلك على يد بوليبيوس الذي امتلك رؤية واضحة المعالم لمعنى التاريخ ووظيفته ولدور المؤرخ وشروط التاريخ العلمي(النشّار، 1997، ص 109).

ومن الأقوال المنسوبة لبوليبيوس: " إن وظيفة التاريخ في المحل الأول أن يحقق العبارات الدقيقة التي قيلت بالفعل مهما كانت هذه العبارات، وفي المحل الثاني أن يتحرى السبب الذي توج الحدث الذي تم أو العبارات التي قيلت بنجاح أو فشل. إن صياغة الوقائع عارية هي في حد ذاتها متعة دون أن تكون فيها قيمة تثقيفية، بينما يحيل الشرح الإضافي للسبب من دراسة التاريخ عملاً مثمراً. فالتحليلات التي يمكن أن تستخلص من مواقف تماثل مواقفنا تقدم مواد وافتراضات للتنبؤ بالمستقبل فيما يتعلق بتلك المواقف التي تكون بمثابة النذير، بينما تشجعنا في فترات أخرى بأن نبدي جسارة في الأحداث المقبلة بموجب موازنة تاريخية" (توينبي، 1966، ص 227). إن بوليبيوس هنا لم يحدد وظيفة التاريخ والمؤرخ فقط، بل قدّم لنا رؤية حول منفعة التاريخ التي تتمثل في قدرة من يتأمل أحداثه ويوازن بينها على التنبؤ بالمستقبل والحذر من أحداثه أو الدخول في صنع هذه الأحداث بشجاعة وجسارة (النشّار، 1997، ص 109).

ونظراً لفكرة استمرارية التاريخ عند بوليبيوس، فإنه يدعو المشتغلين في التاريخ: "**ألا يقصروا اهتمامهم على ما يعالجون من أحداث فقط، ولكن خير لهم أن يمعنوا النظر فيما سبق، وما واكب من أحداث لكي يكون ذات قيمة في المستقبل**" وهو مقتنع بأن وحدة تاريخ العالم قد تحققت نتيجة لقيام دولة روما العالمية. وأصبح العالم يعيش في عصره تجربة جديدة هي تجربة وحدة تاريخ العالم

فنجده يقرر: "**أنه في العصور السابقة كانت أحداث التاريخ منفصلة ومستقلة بعضها عن بعض في أسبابها ونتائجها بقدر انفصال أقاليمها، ولكن منذ ذلك التاريخ فصاعداً، اكتسب التاريخ وحدة عضوية، فأحداث إيطالية وإفريقية أصبحت متشابكة مع ما يحدث في اليونان وآسية، وكأن تاريخ العالم قد أصبح يتجه إلى مصير واحد**" . (سارة، 2007، ص 117).

لقد تجلت عبقرية بوليبيوس التاريخية كذلك في تحديده للمنهج الذي ينبغي للمؤرخ أن يتبعه حتى تأتي روايته للأحداث موضوعية وبعيدة عن التأثر بشخصيته وبآرائه كمؤرخ (توينبي، 1966، ص 226). وكذلك إدراكه أن التاريخ ليس مجرد سرد للأحداث الجزئية وفي مطالبته للمؤرخ أن يحاول الوصول إلى إدراك الأسباب الجوهرية البعيدة لهذه الأحداث (توينبي، 1966، ص 172). فالتأريخ الأفضل عنده هو التأريخ الشامل للأحداث (توينبي، 1966، ص 173–174).

الخاتمة:

من خلال ما سبق؛ لاحظنا بشكل لا يدعو للشك العلاقة بين التاريخ والفلسفة، والتي تجلت في أبعاد ومجالات هي المنهج الفلسفي والمنهج التاريخي وهذا الاختلاف حول طبيعة المنهج من خلال مواقف المثاليين والوضعيين باعتبار التاريخ علم أم أدب. ورغم الخلافات حول أهمية التاريخ وماهية التاريخ فإن المؤرخ له دوره في الحكم على الأحداث التاريخية وهذا يرتبط بجملة من الأحكام والفلسفات التي عالجت هذه المسألة ولاسيما فلسفة الأخلاق. وأن تعدد مجالات التاريخ من فلسفات مادية ومثالية أدت إلى تعدد المناهج والفلسفات من الحضارية والعنصرية والجنسية والمادية والنفسية والمثالية والبطولية وغيرها.

إن فلسفة التاريخ مؤسسة على علم التاريخ، من حيث أنه علم الوقائع الموجودة في المكان والزمان، فالتاريخ لا يسير اعتباطاً، وإنما حسب حدود مرسومة، وهذه الحدود هي المنطق الذي يربط حوادث التاريخ وينظمها، وهذا المنطق عبارة عن فروض عامة، أي فلسفة تصبغ تموجات التاريخ بصبغتها.

ومن جهة أخرى فقد تميز المفكرون اليونانيون (الإغريق) بشغفهم في البحث عن الحقيقة والتحري والتعليل والفلسفة التي كانت من ابداعاتهم الفكرية. وتميزوا أيضاً بالتفكير العقلي الذي وجههم إلى التاريخ فحاولوا الإجابة عن أسئلة تتعلق بأمور يعتقد الإنسان أنه يجهلها. إذ أصبحوا ينظرون إلى حقائق الأشياء، غير مشوبة بشفافية الخرافة وأقبلوا يتعرفون على العلل الطبيعية لظواهر كانت حتى وقتهم تضاف إلى ما لا يحصى من أهواء آلهة لا تحصى. إذ مثل تنبؤ تاليس المالطي بكسوف الشمس في عام 585 ق.م، وتحقق تنبؤه إيذاناً بتفتح عصر جديد في تاريخ العقل البشري وقد تملك اليونان منذ ذلك اليوم شغف البحث أي ما يسمونه باليونانية " إيستوريا" أي تاريخ. ولعل أقدم المؤرخين اليونان الذين حفظوا لنا التاريخ هم: هكتيوس، هيرودوت، ثوكوديدس، أما آخر كبار المؤرخين اليونانيين فقد كان بوليبيوس.

وقد حاولنا من خلال البحث إلقاء الضوء على رؤية مؤرخي اليونان لعلم التاريخ ومدى ترابط هذا العلم مع فلسفة التاريخ وفكرة هذه الفلسفة عند هؤلاء المؤرخين مما أسهم بشكل واضح في تطور النظرة للتاريخ وتحوله إلى علم يوازي وأحياناً كثيرة يتفوق على غيره من العلوم العقلية والإنسانية.

التمويل: هذا البحث ممول من جامعة دمشق وفق رقم التمويل (501100020595).

Funding: this research is funded by Damascus university – funder No. (501100020595).

المراجع:

1- توكوديدس، تاريخ الحروب البلوبونيزية، ترجمة دينا الملاح، عمرو الملاح، أبو ظبي، المجمع الثقافي، 2003.

2- توكوديدس، تاريخ الحروب البلوبونيزية، الترجمة الروسية، ستراتوفسكي غ.أ، لينغراد،1981.

3- هيرودوت، التاريخ، ترجمة عبد الإله الملاح، إصدار دار الثافة، أبو ظبي 2001.

4- هيودوت، التاريخ في تسعة أجزاء، الترجمة الروسية، ستراتوفسكي غ.أ، لينغراد، 1972.

5- أدهم، علي ، تاريخ التاريخ، دار المعارف، د.ت.

6- بارنز، هاري المر، تاريخ الكتابة التاريخية، ترجمة محمد عبد الرحمن برج، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة 1987.

7- باقر، طه وحميد، عبد العزيز، طرق البحث العلمي في التاريخ والآثار، مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر، الموصل 1980.

8- تونبي، بحث في التاريخ، ترجمة طه باقر، مطبعة التفيض، بغداد 1955، ج2.

9- توينبي، أرنولد، الفكر التاريخي عند الإغريق، ترجمة لمعي المطيعي، مراجعة محمد صقر خفاجة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة 1966.

10- حاطوم، نور الدين، وآخرون، المدخل إلى التاريخ، مطبعة الإنشاء، دمشق، 1384هـ/1964.

11- حسين، محسن محمد، طبيعة المعرفة التاريخية وفلسفة التاريخ، موكرياني أربيل، ط1، 2012.

12- الحصري، ساطع ، دراسات عن مقدمة ابن خلدون، لبنان، ط3.

13- الحويري، محمود، منهج البحث في التاريخ، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، مصر 2001، ص 46.

14- خضر، عبد العليم عبد الرحمان ، المسلمون وكتابة التاريخ – دراسة في التأصيل الإسلامي لعلم التاريخ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هيرندن–فرجينيا، الولايات المتحدة الامريكية، 1993.

15- الخشاب، مصطفى ، تاريخ الفلسفة والنظريات السياسية، القاهرة 1953.

16- الخطيب، سليمان، فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي – دراسة إسلامية في ضوء الواقع المعاصر، سلسلة الرسائل الجامعية 4، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية.

17- خفاجة، محمد صقر ، هيرودوت يتحدث عن مصر، القاهرة 1987.

18- خليل، عماد الدين، حول إعادة تشكل العقل المسلم، كتاب الأمة، قطر 1403هـ، ط2.

19- ذنون طه، عبد الواحد ، أصول البحث التاريخي، دار المدار الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 2004.

20- زايد، عبد الحميد، مصر الخالدة: مقدمة في تاريخ مصر الفرعونية منذ أقدم العصور حتى عام 332 ق.م، الهيئة المصرية للكتاب، د.ت.، جزء 1

21- الزيدي، مفيد، المدخل في فلسفة التاريخ، دار المناهج للنشر والتوزيع، عمان الأردن، ط1، 1426هـ/2006م. السلماني، عبد الله طه عبد الله ، منهج البحث التاريخي، دار الفكر، عمان، ط1، 1430/2010.

22- سارة، خليل، تاريخ الإغريق، مطبوعات جامعة دمشق، دمشق 2007/2006.

23- السلمي، محمد بن صامل، منهج كتابة التاريخ الإسلامي وتدريسه، السعودية، 1988، ط1.

24- شرف، محمد جلال و محمد، علي عبد المعطي ، الفكر السياسي في الإسلام شخصيات ومذاهب، الإسكندرية 1978، دون طبعة.
25- الشرقاوي، عفت ، في فلسفة الحضارة الإسلامية، دار النهضة العربية، بيروت 1981، ط3.
26- صبحي، أحمد محمود ، في فلسفة التاريخ، مطبعة الثقافة الجامعية، الاسكندرية، مصر 1975.
27- صبحي، أحمد، في فلسفة الحضارة . الحضارة الإغريقية، الاسكندرية، د.ت.، ص 124.
28- العالم، محمود أمين، فلسفة المصادفة، مكتبة الدراسات الفلسطينية، 1969.
29- عبد الوهاب، لطفي، اليونان، مقدمة التاريخ الحضاري، بيروت، 1979.
30- علي، عبد اللطيف أحمد، مصادر التاريخ الروماني، القاهرة 1964.
31- كار، إدوارد ، ما هو التاريخ، ترجمة أحمد حمدي محمود، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، 1382هت/ 1962.
32- كولنجوود، ر.ج. ، فكرة التاريخ، ترجمة محمد بكير خليل، راجعه محمد عبد الواحد خلاف، القاهرة ، 1968
33- الملّاح، هاشم يحيى ، إشكالية البحث عن الحقيقة في التاريخ، دراسة في منهجيات البحث التاريخي وآفاقه المستقبلية، بحث منشور في مجلة آداب الرافدين (عدد خاص)، العدد 47، 2 لسنة 1427هـ/ 2007م.
34- النايف، حسام، المرعشلي، ميسون، المدخل إلى أصول البحث، مطبعة جامعة دمشق، دمشق، 2019-2020م/ 1441-1442هـ.
35- النشّار، مصطفى ، من التاريخ إلى فلسفة التاريخ قراءة في الفكر التاريخي عند اليونان، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1997.
36- نصار، ناصف ، الفكر الواقعي عند ابن خلدون، بيروت، 1987، ط1.
37- هرنشو، ف. جي. سي.، علم التاريخ، ترجمة عبد الحميد العبادي، ط2، مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة 1944.
38- هيغل، محاضرات في فلسفة التاريخ-العقل في التاريخ، ج1، لبنان، ط 2.
39- ويدجيري، ألبان د ، المذاهب الكبرى في التاريخ من كونوشيوس إلى توينبي، ترجمة ذوقان قرقوط، لبنان 1972، ط1.